المجاز عندما يكون تفكيرا

ديفيد س.ميال
ترجمة: أيمن حمودة *

تدور الدراسات التي تناولت المجاز مؤخراً حول عدد من النقاط أولها: ما الذي يطرأ على معاني الكلمات المكونة للعبارة المجازية؟ أو بصيغة أخرى هل يحدث تغيير في معنى تلك العبارات؟ وثانيا: هل ينشأ عن العبارات المجازية معنى جديد. أم أن الأمر يقتصر على لفت الانتباه إلى المعنى الموجود في الأصل إنما بأسلوب جديد؟ أو بمعنى هل المعنى الذي تعبر عنه العبارات المجازية مطابق تماماً للعبارة الحرفية؟ وثالثا هل تفصح العبارات المجازية عن حقيقة أم تجعلها مبهمة؟: أم أن قضية الحقيقة لا علاقة لها أساساً بهذا الموضوع؟ ليس واضحا كيف يمكن لهذه القضايا المختلفة أن تكون مترابطة، إذ غالباً ما يتم البحث في كل منها بصورة منفصلة، وكأن المشكلات التي في جانب منها لا تأثير لها في النتائج المتوصل إليها في الجانب الآخر. لا مراء في أننا نحتاج إلى تعريف المجاز بأنه وحدة وظيفية متكاملة؛ ببيان الدور المميز الذي يلعبه في الفكر. ذلك أن كثيراً من النقاشات التي دارت حول تلك القضايا الثلاث حصرت اهتمامها بدراسة العبارة المجازية بوصفها مجموعة لغوية بحتة من العلاقات. وهذه النقاشات- كما سأوضح لاحقا- اتجهت إلى حجب طبيعة المجاز ووظيفته. لهذا السبب رأيتني أطرح مسألة دراسة المجاز بوصفه وحدة ديناميكية متكاملة؛ أو بوصفه عملية فكرية تنشأ عن الكلمات التي تتألف منها، متجاوزا المناهج التحليلية الجامدة التي كانت سائدة إلى اليوم، ومقدما بعض البراهين من علم النفس المعرفي لدعم وجهة نظري.

قد لا نتمكن من فهم المجاز بصورة وافية إلا من خلال نظرية عامة في الإبداع creativity، فإذا قمنا بدراسة المجاز عن كثب، تجلت أمامنا ربما بعض العمليات الفكرية التي يبدو أنها تعمل على نطاق واسع في جميع عمليات التفكير الإبداعي. ذلك أن معظم تفسيرات المجاز كانت تستخلص إلى الآن حصرا من الفلسفة واللغويات وتتغاضى عن الاعتبارات النفسية، إلا القليل غير المؤثر منها. ونتيجة لذلك، ظلت الكيفية التي يستند المجاز فيها إلى قاعدة من عمليات التفكير الفطرية ونوعية التحولات التي يحدثها في تلك العمليات، مسائل غير مطروقة من منظور نفسي. وبالكاد تم التوصل إلى وجود حقائق ينبغي معرفتها عن المجاز فيما يتعلق بطبيعة التفكير، حقائق من شأنها أن تعزز وبلا شك فهم الكيفية التي نستجيب بها إلى الأدب وجماليات الشكل الأدبي.

١- تغير المعنى

تشتق الصيغة القياسية المستخدمة عادة في مناقشة المجاز من أمثلة بسيطة مثل: ريتشارد ثعلب؛ والإنسان ذئب؛ وسميث خنزير.

---

* مترجم – الأردن

يبدأ تيد كوهين Ted Cohen مثلا تفسير المجاز باختبار المعادلة «س هي ص». لافتا الانتباه إلى أن هذه الصيغة هي أبسط أشكال المجاز وقد تقود المرء إلى المبالغة في تبسيط الأمور. سآخذ تحذير كوهين بعين الاعتبار وأحصر نقاشي في هذا النوع من المجاز، كونه كان أيضاً الموضوع المحوري لتفسير ماكس بلاك Max Black الذي أستعرضه لاحقاً.

في العبارة المجازية «سميث خنزير» (أحد الأمثلة التي قدمها كوهين)، نلاحظ أن المشبه – س في المعادلة – هو «سميث»، بينما «خنزير» هو المشبه به. يتساءل كوهين هل طرأ أي تغيير على المعنى في هذه العبارة المجازية؟ وكان جوابه بالإيجاب، إلا أنه يحصر اهتمامه في المشبه به. ولهذا السبب، وجدناه يطور المعادلة «س هي ص» بصورة مؤقتة فيقول: عندما نصادف هذه الصيغة بصفتها عبارة مجازية، «ندرك أن 'ص' لا تستخدم بمعناها المعتاد (فلنقل ص ن) وإنما بمعنى مجازي مختلف؛ فلنقل (ص م)».
أما في العبارتين التاليتين: «لحم خنزير» و «سميث خنزير»، فنجد أن لكلمة خنزير معنيين مختلفين؛ أو بعبارة أخرى، أن معنى كلمة خنزير قد اختلف في العبارة المجازية عما كان عليه في العبارة الحرفية. وعليه، فإن المشكلة تبرز من العلاقة بين معاني (ص ن) و (ص م)، التي لم يتمكن كوهين من إيجاد أي نتائج واضحة بشأنها. ذلك أن الصعوبة التي واجهها كانت تنحصر بالتركيز على الافتراضات النابعة من الاعتقاد بتغير معاني ص؛ ولكن الحقيقة أن هذا الجانب ليس الجانب الذي ينبغي التركيز عليه.

لا شك أن المسألة تتعلق بحدوث تغيير في المعنى. لكن كلمة «سميث» في المثال السابق هي ما تدعونا العبارة المجازية إلى رؤيته بشكل آخر، وليس «خنزير» لأنها كلمة تظل تحتفظ في العبارتين بمعناها المعروف. فمنا هنا باستعارة دلالات معنى هذه الكلمة ثم شبهنا سميث بها، وبهذا يشكل المشبه به تصوراً مختلفاً لدينا عن سميث. ولأن الهدف هو تفسير المجاز، فقد كان ضروريا أن ننظر إلى ما وراء الكلمات في مثل هذه العبارات لنركز على المفاهيم التي تحملها. سأوضح لاحقاً أن المفاهيم هي التي تتفاعل لا الكلمات.
ولكن، لماذا يتجه المنظرون إلى جعل المشبه به محط اهتمامهم فينصبون على دراسته؟ ربما كان الجواب أن المشبه به هو الكلمة التي تلفت الانتباه إليها كونها المصطلح «الخارج عن المألوف»، الأمر الذي يعطينا اتجاهاً تحليلياً قد يدعمه الشكل المجازي الذي كنا نناقشه سابقاً أعني «س هي ص». إذ يبدو أن مثل هذه العبارات المجازية توحي بوجود تشابه بين الكلمتين، وهكذا نرى المعنى الذي يحمله المشبه ملازماً بشكل كاف للكلمة الأكثر لفتاً للانتباه – المشبه به - أو مرتبطاً بها، بحيث لا يتم دراسته منفصلاً عنها.

إن لدى بعض الكتاب فكرة أوضح عن المجاز أكثر من غيرهم ولهذا رأينا بعضهم ينبه إلى ضرورة مقاومة التوجه نحو التركيز- عند محاولة فهم المجاز- على المشبه به؛ فإيفور ريشاردز I. A. Richards كان أول من أشار إلى قيام المجاز أحيانا على «تباين»؛ وذلك حين رأى أن هنالك اختلافات بين الكلمتين «تقاوم التأثيرات التي تنشأ عن نقاط التشابه فيما بينها وتتحكم بها»:

إن الحديث عن التماهي أو التذويب الذي يحدثه المجاز يكاد يكون دائما مضللا وغير بناء . فهناك على وجه العموم القليل جدا من المجاز الذي يكون فيه التباين بين المشبه والمشبه به أقل فاعلية من ذلك المجاز القائم على التشابه.
ويرى نيلسون جودمان Nelson Goodman في نظريته حول التشابه أن حدوث الانتقال في المجاز «إجباري»؛ أي أن التطبيق المجازي لصفة ما على شيء معين يواجه مقاومة مسبقة وواضحة أو ضمنية بين تلك الصفة وذلك الشيء، فأينما وجد المجاز وجد الخلاف».

ومثل هذا الخلاف من شأنه أن ينبهنا إلى حقيقة أن الكلمات ليست هي ما يتغير في المجاز وإنما المفاهيم التي توحي بها . وإذا تغير معنى الكلمة نتيجة استخدامها في المجاز، فقد تكون ملاحظة جودمان التي مؤداها أن كل مجاز يضيع بالتكرار والابتذال مقبولة؛ وهذا لأن المجاز – على حد قوله – «يعتمد على عوامل زائلة كالحداثة وجذب الانتباه»، غير أن هذا قد ينطبق على اللغة المستهلكة(ما يسمى«المجاز الميت»)، وليس على المجاز الأدبي مطلقاً.

لقد قرئت السونيتة الستون لشكسبير كثيرا ولا تزال تقرأ على مر السنين وتعاد قراءتها؛ ومطلعها « بعدما يأتي الوليد إلى نور الحياة يحبو حتى يكبر ...»، وما تزال إلى الآن تجذب الانتباه إليها كما كانت عندما كتبت أول مرة. وكونها كذلك أمر يبعث السرور في النفس.

وهو في الوقت نفسه أمر يشوبه الغموض نوعاً ما. فلماذا يستثنى المجاز الأدبي من المنهج الذي من الواضح أنه يبالغ في استخدام الكثير من العبارات المجازية المأخوذة من الكلام العادي(الحرفي)؟ لعل بقاء المجاز بتلك القوة يشير إلى عدم وجود أي تغير في معاني المشبه به - النور و يحبو. وإذا كان مصدر تلك القوة من جهة أخرى في المستوى الدلالي، فما هي الآلية التي تتغير فيها المفاهيم من خلال هذا المجاز؟

إذا وصف سميث بأنه خنزير، فكيف يغير هذا المجاز فكرتنا عن سميث؟ سيقول العديد من الكتاب بمن فيهم ماكس بلاك Max Black و مونرو بيردسلي Monroe Beardsley إن المعنى الدلالي في كلمة خنزير ينتقل إلى سميث؛ وبهذا نكوّن فكرة عن سميث بأنه شخص وحشي أو أناني أو وسخ أو سمين أو يشخر، اعتمادا على الدلالة التي نراها الأنسب. وهذه المعاني الدلالية هي مجرد المفاهيم لا الخنزير بحد ذاته؛ فليس سميث خنزيراً حقيقياً. وما لا يتنقل هو معناها اللفظي الحرفي أو الاصطلاحي. وإذا كانت الدلالات في كلمة خنزير هي ما تتدخل في تغيير رأينا عن سميث، فهل تعمل على تعزيز فكرة نعرفها سابقا عن سميث، أم أنها تخلق لدينا فكرة جديدة كلياً عنه؟

مع أن ماكس بلاك يميل إلى إعطاء المعاني الضمنية حيزاً في تفسيره، إلا أن ذلك التفسير يشوبه خلل جوهري لأنه يرى المعنى محصوراً بمستوى الكلمات فحسب. وهذه الفكرة متأصلة في وصفه لظلال المعنى؛ أو ما يسميه «نظام المواضع المشتركة المترافقة» التي ترتبط بالكلمة وتفسرها «مجموعة من العبارات». وهو يتحدث عما نعرفه مسبقاً عن تحليل تلك المعاني وعملها ضمن المجاز. ففي المثال الذي سبق ذكره «الإنسان ذئب»، يؤكد بلاك أن كلمة «ذئب» تعمل «عمل شاشة ننظر عبرها إلى الإنسان» إذ تنتقل أية صفات إنسانية يمكن أن نتحدث عنها ودون جهد إضافي عبر»لغة الذئاب» مضافا إليها تلك الصفات التي لا يمكن أن تكون معاني ثانوية.» ويشبه بلاك هذه الفكرة بالنظر إلى صفحة السماء في الليل عبر قطعة من الزجاج الذي ننفخ البخار عليه فيبقى على سطحه أثر من الوضوح، ونرى منها بعض النجوم التي تنتظم على طول خطوط قطعة الزجاج. وإذا كانت هذه الصورة هي ما يقصده بلاك فعلاً، فذلك يعنى أنه لا ينشأ معنى جديد وإنما إدراك لما نعرفه سابقا.

وعندما أوضح بلاك هذه الفكرة، أصبح أمام إشكالية تفسير كيفية تأثير دلالات معاني المشبه به في المشبه. ولهذا السبب قام بلاك بطرح فكرة انتقال المعنى، ولكنه وجد أن ذلك يتطلب منا أن ندرك أن بعض دلالات المعاني نفسها لا بد أن تخضع «لتغيير مجازي في المعنى في أثناء عملية الانتقال من المعنى الثانوي إلى المعنى الرئيس للمشبه.» وبهذا لا يتكون لدينا مجاز واحد وإنما عدد منها- واحد لكل معنى من ظلال المعنى التي تنتقل. ووفي مواجهة هذه النتيجة حاول بلاك تقليص الإشكالية بالتراجع عن استخدام مصطلح «انتقال المعنى» واستبدال مصطلح «امتداد المعنى» به؛ ولكن هذا المفهوم يبقى مبهماً، ويضعنا في شك: فهل كان بلاك يرى احتمالية وجود أي روابط حقيقية بين المشبه والمشبه به؟ لا بد أن الإشكالية التي واجهت بلاك ستكون حتمية إذا حاولنا فهم كيفية انتقال «مجموعة من العبارات». إن فهم ظلال المعنى بهذه الطريقة سيكون فشلاً في الاستفادة من الفرق الذي تحدثه بين الكلمات والمفاهيم، بين الوظيفة المرجعية للغة والأنشطة الفكرية التي قد تنشأ عنها. وكما أوضح بلاك في ملخصه الختامي، فقد حاول شرح قوة المجاز لتوضيح فهمنا للمسألة على مستوى حرفي بحت: فقال: «هذا تحول في معاني الكلمات التي تنتمي إلى العائلة نفسها أو النظام نفسه كما في العبارة المجازية التالية...». فالعبارة التي تلخص مشكلة المجاز الرئيسة هي: أن المعنى هو الذي يتحول لا الكلمات.

ينبغي هنا أن نقارن هذه النتيجة بتفسير بلاك في المثال السابق«الإنسان ذئب». إذ يصعب استحضار كل الترابطات اللفظية لكلمة ذئب في تفكيرنا لنتمكن من فهم هذه العبارة المجازية؛ فالفهم ينبغي أن يكون فورياً. كيف يتم استعراض ظلال المعنى في تفكيرنا، وكيف تخلق فكرة جديدة لدينا عن المشبه؟ ربما يكون تفسيرها من خلال ترابطات المعنى مضللاً هنا. وللبحث في هذه المسائل، علينا أن نأخذ النقطة التي طرحها ريتشاردز حول الاختلاف أو التباين بعين الاعتبار، فإذا كان الهدف من المجاز لا يكمن في الخلاف أو في الشبه بين المشبه والمشبه به، فما هي وظيفته إذن؟ وإذا كان من المهم تحديد دور المجاز في التفكير، أفلا يجدر بنا في الوقت نفسه أن نقدم بعض الآراء حول مسألة الحقيقة للإشارة إلى علاقتها بالمجاز بصورة خاصة.

٢- ظلال المعنى

من الواضح أن عدد ظلال المعنى connotations التي

ترتبط بكلمة ما في العبارة المجازية لا يمكن حصرها. يشير كوهين مثلا إلى أن «تعذر حصر» الدلالات هو «ميزة المجاز.» ثم إننا لا نستطيع أن نحدد مسبقا ما هي الدلالات التي يمكن أن تنشأ عن المجاز، الأمر الذي يلعب دوراً هاماً في الإبداع في المجاز. وكما ذكر بيردسليي، فدلالات المعنى لا يمكن معرفتها بشكل مسبق وتام، حتى إننا كثيراً ما نكتشف دلالات جديدة لمعاني الكلمات عندما تأتي في صورة مشبه به في الاستخدام المجازي.

وإذا كان فهم الكيفية التي ينشأ فيه تغير في معنى المشبه عن المعاني الدلالية في المجاز يقوم على أساس كونها عملية فكرية، فإن الأمر يلزمه مزيد من الدراسة لتوضيح هذا الغموض. ولا نستطيع- على الرغم من ذلك- وضع حدود لهذه المسألة، أما إذا تجاهلناها فإننا نضعف وجهة نظرنا حول ما يحدث في المجاز. فنحن نحتاج أولاً إلى إلمام أكبر بالعمق الذي قد يتم فيه تفعيل المصادر الدلالية. كما نحتاج أن ندرك تماماً كيف تعمل مثل هذه الدلالات على نحو منظم مسبقاً؛ فلا وجود للترابط العشوائي أو الحر.

من بين الدراسات التجريبية التي تناولت طبيعة التفكير، وأكثرها لفتا للانتباه حول فهم المجاز إسهام مدرسة فوتسبورج للطب النفسي WÜrzburge في العقد الأول من هذا القرن، وقد نسيها الكثيرون إلا الفلاسفة المؤرخون. وكان فلاسفة ويتزبيرج أول من ادعى – على أساس البراهين الاستبطانيةintrospective التي تم تحصيلها خلال فحوص تجريبية متنوعة – أن هنالك نوعاً من التفكير الذي لا يشتمل على الكلمات ولا على الصور العقلية، ويحيط بتلك الصور والكلمات ويدعمها كتلة - كما أطلق عليها- من التفكير عديم الصورةimageless . وفي بعض الأحيان – وهذا ما تشير إليه بعض التجارب المثيرة للاهتمام – فإن لهذا التفكير أثراً جوهرياً على سير الوعي؛ لكن المفكر نفسه يبقى غير مدرك جزئياً أو كلياً له. وهذا - كما سيتضح لاحقاً – ينطبق على بعض أشكال المجاز، إذ يمكننا شرح ما تعنيه لنا على الفور، أو الصور التي تخلقها في أذهاننا، ولكننا نظل على الرغم من ذلك نشعر بغياب بعض نواحي المعنى الهامة – بمعنى أن شيئا ماً يستمر في الخروج عن سيطرة وعينا.

وتوضح إحدى التجارب، وقد أجراها كارل بولر Karl BÜhler، نوعية الوظيفة الإدراكية التي تشتمل عليها هذه العملية. فقد كان مهتما باستكشاف العمليات الفكرية التي تتكشف لنا عندما يعطى الشخص الخاضع للتجربة مهمة فكرية حقيقية ليقوم بحلها. قام بولر بإعطاء ذلك الشخص جملة تعبر عن قضية معقدة (مثلاً: «إن التفكير صعب بصورة غير اعتيادية إلى درجة تدفع الكثيرين إلى تفضيل إصدار الأحكام»). وعندما نطرح عليه سؤالاً مثل: «هل فهمت؟» تتلخص الإجابة في هذه الحالة بخيارين: «نعم» و«لا». وأثناء تلك المدة - التي يتم قياسها – يقوم الشخص باستدعاء العمليات الفكرية المرتبطة بعملية فهم تلك الجملة بأوضح ما يمكن. وتظهر إحدى التجارب (التي أجريت على دور Durr) بوضوح أن لاستحضار المفهوم أهمية محضة في الوصول إلى إجابة فورية. فعندما طرح على «دور» السؤال التالي: «هل العبارة التالية صحيحة: «إن المستقبل ظرف مرتبط بالحاضر تماماً كما هو مرتبط بالماضي» ، احتاج إلى التفكير لمدة عشر دقائق قبل الإجابة بلا. وقال:

في البداية بدا لي أن في العبارة فكرة صحيحة (بعيداً عن الكلمات). ثم حاولت أن استعرضها مجدداً، فخطرت في ذهني الفكرة التالية: يتأثر الإنسان بالأفكار المستقبلية. ثم تبعتها مباشرة الفكرة التي تلتها: لا ينبغي أن يكون التفكير بالمستقبل جزءاً من المستقبل ذاته؛ ذلك لأن مثل هذا التداخل هو بمنزلة خداع متكرر للفكر الفلسفي. (وأما الكلمات والصور فلم يكن لها أثر في العملية) ومن هنا جاءت الإجابة بلا.

الأمر الهام في تجربة التفكير هذه تكمن في إهمال العديد من الروابط الحقيقية المحتملة التي تربط المستقبل بالحاضر. إذ تصبح المسألة تتعلق بواحدة من أفكار الإنسان حول المستقبل، ولكنها بالنسبة إلى «دور» عبء تمثل بإيجاد مفهوم فلسفي مهم، لذلك أجاب دون الحاجة إلى المزيد من التفكير.

لعله تأمل لاحقاً في جوانب أخرى من السؤال قد أهملها عندما فكر في الإجابة. ولكنه رأى عبر ملاحظات السيد فريديرك بارتليتSir Frederek Bartlett في دراساته حول الإدراك أنه يتم استحضار مجموعة الميول التي يحضرها معه الشخص الخاضع للتجربة في التفكير لتصبح العملية سريعة وسهلة قدر الإمكان. ويحمل مفهوم «دور» الفلسفي فكرة هامة متمثلة بعبء السلطة الفكرية، فضلاً عن كونه تطوراً ملائماً لمفهوم التفكير في المستقبل. وبهذا يبدو أنه مفهوم يطبق تلقائياً دون أن يتم التحقق منه ودون أن يتم التحقق فعلياً فيما إذا كان من متطلبات حل المشكلة أم لا.

وهكذا، يكتفي المفكر بمجرد استحضار المفهوم؛ أي المعنى المدرك الذي يشعر أنه كاف للموافقة على النتيجة التي توصل إليها، وأما التفاصيل ومدى علاقة المفهوم بالموضوع فيتغاضى عنها.

إن ظهور مفهوم كهذا على أعتاب التفكير يوحي بأمرين، الأول: استعداد سيطرة اللاوعي لتوجيه الوعي، والثاني: الطبيعة المنهجية والمنظمة التي يتصف بها هذا النوع من التفكير. وفي الحقيقة، يبدو من تجربة دور، أنه وبسبب التنظيم الذي يتصف به التفكير بصورة خاصة، فإنه يستخدم التأثير الذي ينشأ عن تلك الصفة؛ أي أنه يختبئ وراء تفكير «دور» الواضح نقاش فلسفي محتمل.

إن تفسير المجاز مهمة أصعب من العملية الفكرية التي تظهر في مثل هذا الظرف المصطنع والخاضع للمراقبة. لكننا نرجح فرضية وجود قدر مشابه من تأثير اللاوعي والتنظيم بالإضافة إلى مصادره الدلالية. باستطاعتنا وعي مثل هذا التأثير ومثل هذا التنظيم – ولكن إلى حد ما – وذلك على الأغلب إلى أن نشعر بحضور الأنظمة الفكرية الرئيسة في أذهاننا لنختبر ونفهم أن التأثير الذي يحدثه المجاز هو بمنزلة استكشاف عالم الفكر لدى المرء والفرضيات التي لم يقم باختبارها من قبل. فمثلا، إذا أردت تفسير سبب قوة عبارة شكسبير المجازية: «نور الحياة»، سأرجع إلى قصيدة أخرى تربط بين الميلاد والبحر في العالم الأخاذ الذي أتينا منه. يقول الشاعر وليام وردزوورث William Wordsworth في قصيدته «الخلود»:

قد نعيش في قلب اليابسة،
ولكن أرواحنا تبصر ذلك البحر اللامتناهي
الذي جلبنا إلى هذا المكان...

وهو يتحدث عن النور كما فعل شكسبير: «أتينا من وراء غيوم المجد المتتابعة...». وتحمل قصيدة ووردزوورث في طياتها معنى الحياة قبل الوجود (الاعتقاد الذي آمن به ووردزوورث وضعف إيمانه به لاحقاً). وهكذا، قد تكمن إحدى الأسباب التي تعطي القوة لاستعارة شكسبير المجازية– الحياة – في فلسفة ما قبل الوجود. إن ظلال المعنى الأخرى لهذه الكلمة، وامتداد البحر، وقوته وحركته التي تفوق تصورنا، كلها نقاط تدعم هذا التفسير. وما حاول ووردزوورث شرحه في عدة مقاطع شعرية، عبر عنه شكسبير باختصار في عبارة واحدة. والنقطة التي ينبغي تأكيدها هي الطبيعة المنظمة للتفكير الذي ينشط من خلال هذا المجاز. ومن هنا، لا تكمن قوة هذا المجاز في عدد الروابط وإنما في قدرته على تنظيم الأفكار وتشكيلها(وإن كانت بغير وعي) لدى القارئ.

وإذا صح هذا التصور عن ظلال المعنى فإن ذلك سيساعدنا على الإجابة على التساؤل: هل المجاز يخلق معنى جديداً أم أنه يلفت انتباهنا إلى المعنى الموجود فقط.؟ ولكن هناك سؤالا سابقا على هذا السؤال يتعلق بالهيكل المنتظم لدلالات الاستعارة المجازية بمعنى هل وجودها في مستوى الوعي لدى القارئ ضروري قبل ظهورها في المجاز أم لا؟ وبهذا تصبح قضية المعنى أكثر تعقيداً، ومثيرة للاهتمام في الوقت نفسه، وذلك إذا اعترفنا بنشاط التفكير الإبداعي المنتظم في اللاوعي.

٣- تشكيل المفهوم

يتوافر عدد كبير من الأدلة على وجود التفكير الإبداعي في اللاوعي؛ فسجلات المخترعين والعلماء والفنانين جميعها مليئة بالأمثلة على المفاهيم التي تظهر لحظة الإلهام غير المسبوقة بنشاط الوعي. ومن الواضح أن التفكير العقلاني المنظم يتشكل في اللاوعي، الذي لا يستطيع المفكر توجيهه أو التأثير فيه أثناء وعيه، ولا يدركه إلا عندما تقتحم نتائجه نطاق الوعي بصورة مفاجئة. ففي هذا المستوى من التفكير، يمكن قبول القليل من الأدلة التجريبية حول التفكير الإبداعي؛ وذلك يعود إلى صعوبة تطبيقها في مناهج الفلاسفة في البحث التجريبي. لكن عملية مماثلة وإن في مستوى أدنى؛ كانت تدرس على نطاق موسع، وأعني بذلك عملية تشكيل المفهوم.

قامت لورين بورثيليت Lorrain Bourthilet مثلا بتقديم مجموعة من الاختبارات في تعلم ترابطات الكلمة. عبر عرض أربعين بطاقة على التوالي، تحمل كل منها زوجاً من الكلمات مرفقة بمعلومات لفهم أوجه الربط بينهما. ثم تتبعها مجموعة أخرى من البطاقات التي تكرر فيها ظهور إحدى الكلمات، وكان على المتحنين اختيار الكلمة المناسبة من بين الخيارات الخمسة. وتكررت عملية تبادل بطاقات «التدريب» و»الفحص» عشرين مرة. وكان المفهوم أو القاعدة التي طبقت في هذه السلسلة من الاختبارات ببساطة هي أن الكلمة الثانية من كل زوج من الكلمات كانت تحمل حروفاً من الكلمة الأولى دائماً. وحالما ينتبه الممتحن إلى هذا، نجده في غنى عن تعلم الرابط الذي يجمع بينهما؛ فقد تعتمد معرفة الإجابة الصحيحة على بطاقات الفحص مجرد اتباع هذه القاعدة. والملاحظ أن بعض الخاضعين للامتحان لم يتعرفوا هذه

القاعدة قط، بل تكبدوا العناء إلى النهاية بمعدل متدن من مجموع الإجابات الصحيحة؛ والبعض الآخر انتبه إلى القاعدة مصادفة في إحدى المحاولات، وبالتالي لم يخطئوا الإجابة على أي من الأسئلة. وكانت أكثر النتائج إثارة للانتباه تلك التي ظهرت لثلث المتحنين، إذ أن إجاباتهم- بالرغم من عدم وعيهم بالقاعدة- اتجهت تدريجياً نحو مستويات مرتفعة من الصحة. فهؤلاء الممتحنون قد طوروا «قدرة على تخمين الجواب الصحيح دون وعي منهم بالسبب» - كما لاحظ بروثليت - مفسراً هذه النتائج بأنه تمثيل للتفكير البديهي؛ أي أنهم «يتصرفون دون الاعتماد على منطق، أو تعبير لفظي، أو إدراك.» وفي النهاية، وبعد العديد من الفحوصات التي تنوعت من شخص إلى آخر، تمكن جميع أفراد المجموعة من إدراك القاعدة، ثم الإجابة على جميع الأسئلة دون أخطاء.

وتوضح هذه التجربة، بالرغم من بساطتها، تطور مفهوم ما واستخدامه لدى المفكر دون وعي منه. وقد لاحظ برونر Bruner وجودناو Goodnow وأوستن Austin ظاهرة شبيهة بهذا في تجاربهم. فقد أظهرت العديد منها، كما اتضح لهم، «أن الأشخاص الذين خضعوا للاختبار قد تمكنوا من تمييز النماذج الشبيهة لمفهوم ما من غير الشبيه به بشكل صحيح قبل أن يذكروا الخصائص التي تعرف هذا المفهوم وهي التي اعتمدوها في إعطاء حكمهم.» وأضافوا بأنه تبين أن الشخص المبدع والأقدر على حل المشكلات هو «من يفوق أداؤه الفعلي قدرته على إعطاء شرح لفظي يفسر هذا الأداء.» ولعل علينا تفسير الاستجابة للمجاز أيضاً، كوننا نجد صعوبة في تفسير ما نختبره لفظياً، بما يشبه اختبار بورثيليت.

إن المراجع الدلالية التي يتضمنها المجاز تدور حتماً حول المفاهيم الفكرية التي تبلورت دون حضور الوعي. وتحضر هذه البنيات الفكرية قبل المواجهة مع المجاز الذي يقوم، بلا شك، بتنشيطها في الفكر. إلا أنه لا يمكن وصفها مسبقاً، ولا تقدير أو تحديد دورها في المجاز أيضاً. هذا الفهم يجعل أي محاولة لتحليل المجاز على أساس المعنى الإدراكي الموجود، والمدرج سلفاً في معجم من الدلالات محاولة ساذجة. وحتى كوهين يخطئ غايته عندما يقبل وإن بتحفظ القول بالإبداع في المجاز وذلك في قوله» كلمات المرء تقول أكثر مما قصد وتكمل ما أراد أن يقول.» فنحن دوماً «نعني» أكثر بكثير مما تقوله كلماتنا بصورة واعية وعلنية. فما يشير إليه كوهين هنا هو تجربة المرء في إدراك البديهة لديه.

إن المصادر الدلالية التي ينشطها مجاز جيد هي أكثر تنظيماً، وثراء في المعنى، وتستحضر ما هو في مستويات أعمق في تفكير الفرد مما كان يظنه معظم المنظّرون في المجاز. إذ يعرض المجاز نموذجاً مثيراً عن دراسة الإبداع في التفكير. وإضافة إلى ذلك فإن المجاز مبدع ليس في إظهار البديهة لدينا فحسب، وإنما في تغيير ما نعرفه أيضاً؛ وهو التأثير الذي تحدثه المعاني الضمنية للمشبه به على المشبه في المجاز.

٤- المجاز عندما يكون تفكيرا

إن انتقال ظلال المعنى إلى المشبه في المجاز يخرجه عن المألوف، ويضيف رؤية مختلفة أو غير اعتيادية إليه. ففي مثال شكسبير، على سبيل المثال: «بعدما يأتي الوليد إلى نور الحياة ....»، يفقد المشبه «نور» معناه المعروف؛ فهو لم يعد ذلك النور الذي نراه في كل يوم، كنور الشمس، أو النور المنبعث من ضوء الشمعة، إن ظلال المعنى ذات الصلة بما قبل الوجود (إذا صحت هذه القراءة) تضيف حالة متعالية على معنى»نور» مضفية عليه نوعا خاصا من الوجود. وبهذا فإن فقدان المعنى المعروف لهذه الكلمة بتأثير من «الحياة»، يثير التساؤلات حول ما قصده شكسبير بدلاً من أن تكون إجابة عليها. فينشأ عن المجاز بالتالي «توتر مؤكد» (كما وصفه بعض الكتاب) إضافة إلى خروج معناه عن المألوف. . إن المعنى الأصلي لكلمة «نور» لا يتم صرف النظر عنه كلياً بلا شك، وإنما يلزم طليعة الصورة، تماماً كما كان، ليعطي المنظور عن الأفق البعيد التي تجلت خلفه بصورة مفاجئة. وفي ذات اللحظة التي ندرك فيها المجاز، نجد القديم، والجديد الغريب معاً، حاضرين بصورة متزامنة؛ فما نراه هو الفكر في عملية التحول.

ولعل أفضل أسلوب لفهم العملية الفكرية التي سبق ذكرها أن نقارنها بمفهوم توماس كون Thomas Kuhn في تغير ما يسميه النموذج الفكري في التفكير العلمي. يقول كون إن هذا التغير يحدث في اللحظة الحرجة في مجال علمي معين، عندما تصبح النظرية والمنهج المتبع (أي النموذج الفكري المتداول في ذلك المجال) غير كاف لتنوع الملاحظات المتضاربة، وتخرج امتدادات النظرية الظرفية عن السيطرة بصورة متزايدة. ونجد أحد الأمثلة على هذه الفوضى العلمية في علم بطليموس الفلكي الذي سبق السنوات التي ظهرت فيها ثورة

نيكولاس كوبرنيكوس. وعلى الرغم من ذلك، لا يصرف النظر عن أي من النظريات بتلك البساطة. فيؤكد كون بأنه وحده ظهور نظرية جديدة، يؤمل منها تقديم فهم أفضل للملاحظات والنتائج التجريبية، يسمح بنبذ النظرية القاصرة التي سبقتها. ويقول كون: إن «الثورة» تحدث كلياً ضمن الفكر، وتمتد مقتضياتها إلى أن تصل إلى المقومات المفهومية الأساسية. وتقوم المقارنة مع الطبيعة مقام اختبار للنظرية، ولكن دون أن تحسم قضية صحتها أو بطلانها – كما قال أينشتاين: «يمكن أن تختبر النظرية بالتجربة، ولكن التجربة يستحيل أن تكون أساساً للنظرية.» يقول كون حول الانتقال إلى أنموذج فكري جديد:

إنها إعادة بناء مجال ما بالاعتماد على أسس جديدة، بحيث يغير بعضاً من أهم المبادئ النظرية الأساسية لهذا المجال، بالإضافة إلى العديد من تطبيقاته ونماذجه الفكرية. فعندما تنتهي مرحلة التشكيل، يتغير شكل المهنة حينها في ذلك المجال، ومناهجه، وأهدافه.
إن إعادة تنظيم كلي كهذا لا ينشأ تدريجياً ولا منطقياً عن عملية تفسير البيانات من جديد، بل يبرز، عوضاً عن ذلك، النموذج الفكري الجديد، وحتى جزء منه، دفعة واحدة؛ «قد يكون أحياناً في منتصف الليل، في عقل شخص غارق في أزمة ما.»

وينشأ عن المعاني الضمنية للمشبه به في المجاز تأثير مشابه للتغير المعرفي الذي يطرأ على فكرتنا عن المشبه. وأشير إلى هذا التشابه هنا لتسليط الضوء على طبيعة العملية النفسية التي تحدث، وهي تخفي ضرورة فصل العنصر اللفظي للمجاز عن التأثير الذي يحدثه على الفكر؛ كالنظرية الجديدة في العلم، إذ قد ينشأ عن التفكير الذي ينقصه الاطلاع الكافي عن موضوع ما تغيير دائم على فكر القارئ، ولكن معاني الكلمات الموجودة تبقى ثابتة دون أي تغيير دون شك. ففي سونيتة شكسبير، لا أرى أي تغيير على معنى كل من الكلمات «نور» و«الحياة»، فلو أنها تغيرت بالفعل، لما أثارت دهشتي في كل مرة أقرؤها، ولأصبحت مبتذلة واعتيادية أكثر فأكثر. ومن جهة أخرى، قد يقوى إحساسي حول الروعة الزائلة بعد الميلاد للحياة قبل الوجود، وقد أدركه بوعي للمرة الأولى في أحدى المرات التي أقرؤها فيها، قد لا يغير الشعر اللغة في البداية ، لكنه قد يحدث ثورة عظيمة في الفكر.

إن إخراج معنى المشبه عن المألوف في المجاز يطلق العنان للمعرفة الواعية، حتى لو كانت المعاني الضمنية الجديدة التي ينبغي أن تعيد تنظيم فهمنا للمجاز تبشر بظهور بديهة المعرفة المستقبلية. إن المجاز يجسد التحول في الفكر، وليست الفحوص التي تطبق لاختبار صحة المعرفة الثابتة أو الراسخة ملائمة له. ومرة أخرى، يبدو أن نماذج التفكير العلمي التي تقدمها الفلسفة الحديثة تزودنا بقياس أفضل من التحليل المنطقي أو اللغوي؛ إذ إن الإشارة إلى الدور الرئيس للنظرية في التفكير العلمي –كما فعل توماس كونKuhn أو كارل بوبر -Karl Pop per– تلقي على عاتقنا التسليم بالنتيجة التي مفادها أننا لا نستطيع أن نتخطى النظرية إلى عالم مطلق أو لا نظري. ويصبح المعيار الذي تقوم عليه النظرية ليس في صحتها أو بطلانها، وإنما في قوتها؛ أي في مدى صمودها أمام محاولاتنا لدحضها، وعدد مجالات الملاحظة التي يمكن أن تبنى وتمنح(بضم التاء) المعنى. وكما يدعو التوتر الذي يطرأ على الفكر – عندما نتحدث عن النظرية - إلى المزيد من البحث والاختبارات التجريبية، يدعونا المنظور الجديد في المجاز إلى استكشاف خبراتنا وتفكيرنا، فليست مهمة المجاز ترسيخ الحقيقة، بل قيادتنا إلى حيث يمكننا البدء بالبحث عن حقيقة ما في فكرنا.
حاولت فيما سبق عرضه أن أشرح كيف أن بعض أقدم القضايا المطروحة عن المجاز- لو صح فهمه بوصفه عملية أو تحول في الفكر، لا بوصفه وحدة لغوية جامدة أو معزولة، كالتغير في المعنى، والإبداع، والحقيقة- ستبدو بالأحرى ساذجة قياسا بشكلها الذي قدمت فيه عموماً، وكيف تأخذ هذه القضايا بعداً جديداً عند رؤيتها متصلة معا بصورة حيوية، وذلك عندما يندمج المجاز بصفته جزءا من رؤية أوسع عن التفكير؛ وعملية مستمرة وديناميكية، عملية قادرة على إعادة صياغة نفسها، وخلق مفاهيم جديدة تفوق إدراك المفكر. وفي هذا الصدد، فالمجاز أكثر إثارة وتشويقاً مما يمكن لأحد، حتى لأولئك الذين أيدوا دراسته، الاعتراف به. وهذا الذي ييسر، برأيي، الطريق لإجراء الأبحاث الحيوية حول طبيعة الفكر بحد ذاته.

demonstrate experimentally unconscious processes of thought in creative artists: W. Getzels and Minhaly Csikszentminhalyi, The Creative Vision(New York, 1976) esp. pp., 1976-77

15-Lorraine Bouthilet, The Measurement of Intuitive Thinking, Unpublished Doctoral dissertation,(University of Chicago, 1948)

16- Jerume S. Bruner, Jacqueline J. Goodnow, and George A. Austin, A study of Thinking,(New York, 1956) p. 60

17- Cohen, loc. cit., 251.

18- for a fuller account of these processes in metaphor and their relationship to meaning see my article, «Metaphor and their literary meaning,» British Journal of Aesthetics, 17 (1977), p. 89.

19- Albert Einstein, « Autobiography Notes,» in P. A. Schlipp (ed.) Albert Einstein: Philosopher Scientist (Evanston, Illinois, 1974) p. 85

20- Thomas Kuhn, The Structure of Scientific Revolution(Chicago, 1970) p. 85

21- Ibid., 90.

22- The historical evidence is rather the reverse. The influence of the King James Bible (which is incidentally full of metaphors) is said to be on the reason why English has kept almost unchanged since the seventeenth century.

الـــهـــــوامش

* مجلة علم الجمال والنقد الفني، خريف عام 1979

** محاضر في اللغة الانجليزية، كلية القديس بول والقديسة ماري، شلتهام، انجلترا.

*** مترجم، ومحاضر في قسم الفلسفة في الجامعة الأردنية.

1-Ted Cohen, «Notes on Metaphor» Journal of Aesthetics and Art Criticism XXXIV(1976), 269.

2- Max Black, «Metaphor» Proceedings of the Aristotelian Society, 15, (1954-55) 273-94.

3- I. A. Richards, Philosophy of Rhetoric(New York, 1950) p.127.

4- Nelson Goodman, Languages of Art(London, 1967) p.69.

5-Ibid., 80

6-Ibid., Loc. Cit., 287-88

7-Ibid., 289

8- Ibid., 292, Black›s recent paper, «More about Metaphor», Dialectica, 1977, does little to answer the problem of his original paper that I have identified, except for granting that concepts can change under influence of metaphor: see section 8.

9- This is made the grounds for objecting connotations theories of metaphor, such as Breadsley›s by J.J Mooij, A study of Metaphor(New York, 1976) pp., 98-99 My discussion is in part designed to rebut such criticism.

10- Cohen, Loc. Cit., 250.

11- Monro Beardsley, Aesthetics, Problems in Criticism(New York, 1963). 143.

12- Cited in George Humphery, Thinking(New York, 1963) p. 53, italics omitted,. Chapters I-IV of Humphery›s book provide the best account of the Wurzburg experiments for the English reader.

13- F. C. Barlette, Remembering(Cambridge, 1932). P.44

14-See nonetheless a persuasive attempt to